المسرح فى خدمة الشعب*

للأستاذ زكى طليمات
مدير المعهد العالى لفن التمثيل العربى

حديثنا اليوم عن فن التمثيل العربى فى الناحية الاجتماعية التى يجب أن يكون لها بحكم الروح الديمقراطى الذى يسود العالم اليوم ، هـذا الروح الذى يقضى بأن يصبح جميع المواطنين فى بلد واحد سواء أمام نظم التعليم ومظاهر التثقيف الاختيارى والترفيه الذهنى .

المسرح العربى اليوم ، بما يقدمه من حفلات مقصور نشاطه على طبقات الخاصة والمتعلمين ولمن دونهما بقليل ، وهو أيضا لطلاب المدارس فى معاهد العلم رياضة للتثقيف وتقويم الذوق ، ولكنه ، منذ نشأته العربية فى وادى النيل ، لم يصبح بعد غذاء روح ، ومصدر تثقيف للسواد الأعظم من الشعب ، الذى يتألف فى أكثريته الساحقة من الفلاحين والعمال ، ومن هم على غرارهم فى مستوى المعيشة والتعليم .

فالفرق التمثيلية المختلفة المشارب والنزعات تجوب أنحاء القطر بين المحافظات وعواصم المديريات والبنادر الكبيرة فى الريف ، ولكنها لا تطرق الريف الأصيل فى نجوعه وكفوره وقراه البعيدة .

وهـذه الفرق التمثيلية فى تطوافها المستمر تقدم فى حفلاتها نفس المسرحيات التى تمثلها فى مسارح القاهرة والاسكندرية ، من حيث المواضيع ، والصياغة الفنية ، والمستوى الثقافى ، ولا تبالى بأن تكون هـذه المسرحيات مما يفهمه جمهور الريف ويستسيغه ويتبصر به لأن حفلاتها مضمون إيرادها من المتعهدين ورجال الإدارة الذين يتحايلون على حشد أهل الريف لحضور التمثيل بمختلف الوسائل .

ويحضر أهل الريف هذه الحفلات بدافع الفضول ، أو الظاهر بالعلم ، أو الإجبار فترى وجوها متطلعة ، ولكن إلى غير ما تفهم وتتذوق تحمل من السذاجة مسحة قد تجتذب نظر المتأمل أكثر مما يجذبه ما يجرى فوق المسرح ، وقد تراهم يشاركون أعيان البندر ورجال الإدارة فى التصفيق للممثلين ، ولكنها مشاركة من بواعثها الرئيسية المحاكاة والتقليد ، وعزة النفس التى تأبى أن يتهم صاحبها بالجهل والغباء ، والنفس كما نعلم تعمل دائما على تغطية محاسرها من مواطن الضعف ، بتكلف ما هو ليس أصيلا فيها .

---

* نص المحاضرة التى أذيعت فى البرنامج الثقافى للوزارة فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٥

وينصرف هذا الجمهور مغبطا نشوان لأنه سعد برهة من الزمن بالتعبير القائم على التقليد والمحاكاة ، إذ أنه فى الواقع أدى دورا تمثيليا لا يقل صعوبة عما يجريه الممثلون فوق المسرح . فإذا خلوا إلى أنفسهم وتذاكروا فيما أمضوا الليلة من أجله ، انفرجت شفاههم عن حيرة ولا أقول عن بله حزين .

ومرجع هذه المأساة الاجتماعية أن ماشاهده هذا الجمهور فوق المسرح يعلو مداركه ويجفو ذوقه ، ولا يخاطبه فى شئ مما يشغل باله من أمور الدنيا ، حتى ولو جرى التمثيل باللهجة العامية .

هذا هو موقف جمهور الريف ، ومن هو على غراره فى مستوى الذهن والمعيشة ، من حفلات التمثيل ، وهذا هو نصيبه من التأثر بها والاستفادة منها ، وحفلات تمثيلية هذا شأنها لا تحقق بأى حال الغرض من قيامها ومن الفن نفسه كأداة للتثقيف والتهذيب ، وكعامل من عوامل التسلية البريئة والترفيه المصفى من أدران الرذيلة .

بل أكاد أقول إنه من الخير أن لا تجرى هذه الحفلات ، لأنها لا تؤثر فى هذا الجمهور الساذج الا فيما له علاقة بالحواس والغريزة الجنسية ، إذ لا يخفى أن أكثر هذه المسرحيات لا تخلو من مواقف للعناق والتقبيل والاغراء بالتجاذب الجنسى ، مواقف ترد فى غير غاية لذاتها ، ولكن كوسيلة إلى ما بعدها من غاية تهذيبية يعتبرها المشاهد ، وهى غاية لا يدركها غير المتعلم الذى تهذب حسه ، كما أن بعض الفرق التى تذهب إلى الريف تتخذ من اسم فن التمثيل ستارا ، فى حين أنها لا تقدم غير ألوان من الرقص والخلاعة ، ألوان تملق ولا شك حواس من كثرت مؤونتهم من صحة البدن وسلامة الأعصاب وقلت أزوادهم من قوى الذهن التى تلجم فورة الدم ونزوات الحس .

وفاصل القول إن فن التمثيل العربى ما زال لخدمة طبقات خاصة وقليلة من الشعب المصرى ، وليس لأكثرية طبقاته ، وهى طبقات تتساوى مع سابقتها فى موقفها من الالتزامات الوطنية ، من حيث دفع الضرائب والقيام بواجباتها كوحدات عاملة فى الانتاج القومى وفى إنماء ثروة البلاد وصونها .

هذه حال إذا قامت فى الزمن الماضى ، وأغفل أمرها لأسباب لا داعى لذكرها ، فلا يصح بأى حال أن تقوم فى هذا العصر ، عصر الحكم الدستورى ، وعهد الديمقراطية مطبقة فى أوسع معانيها ، أقول إن حرمان أهل الريف والعمال ، وهم يؤلفون أكثر من عشر ملايين من تعداد سكان القطر ، حرمانهم من مباهج فن التمثيل المستساغ لهم ، ومن التثقيف بآثاره التى تخاطب أذهانهم ، أمر لا تقره عدالة اجتماعية ، ولا يتفق وروح العصر الذى نعيش فيه ، وهو الروح الذى يهدف ، أول ما يهدف اليه ، إلى محو التفاوت فى الطبقات تجاه شؤون التعليم والتثقيف والترفيه العام .

هذا ومما يبرر أمر المطالبة بتغيير هـــذه الحال ، أنه أصبح لفن التمثيل العربى وزارة تعنى بشئونه وتهيمن على مرافقه ، وقد كان قبلا لا تعنى به هيئة حكومية هذه العناية التى نلمس آثارها اليوم . فلوزارة الشؤون الاجتماعية فرقة تمثيلية ، هى الفرقة المصرية ، تخصصها بآلاف الجنيهات وتشرف على توجيهها إشرافا مباشرا ، وفى ميزانية هـــذه الوزارة آلاف جنيهات أخرى قد رصدت لتشجيع الفرق الأخرى العاملة ، وتنشيط التأليف المسرحى . وادارة معهد لفن التمثيل وآخر لفن الموسيقى المسرحية .

وفى ميزانية وزارة المعارف رصيد لايقل مقداره عن خمسة آلاف جنيه لمساعدة الفرق الأجنبية التى تقيم موسما تمثيليا بدار الأوبرا الملكية فى كل شتاء .

هذا جميل وجد جميل ، يقيم الحجة على أن الحكومة ، وقد فطنت الى ما لفن التمثيل من أثر فى التعليم وفى التقويم الخلقى وفى الاصلاح الاجتماعى ، لا الو جهدا فى تشجيع المسرح المصرى الناشىء ، ووضع خطة انشائية من شأنها أن تيسر له أمر الارتقاء ، وان تزوده بالعناصر اللازمة له وأن تتدم للعاملين فيه نماذج فنية رفيعة بطريق استقدام الفرق الاجنبية من العواصم الاوروبية الكبرى .

بيد أن كل هذه المبالغ التى يتجاوز مجموعها الثلاثين الفا من الجنيهات سنويا انما تنفق من أجل رفاهية أهل القاهرة والمحافظات ، اذ أن الفرق التمثيلية التى تستمد معينها من هذه المبالغ لاتمتد حفلاتها الى أكثر من بنادر الاقاليم ، وفى رحلات قصيرة متقطعة ، وبروايات لا تستسيغها غير الطبقة المتعلمة وهم قلة ، هـذا فى حين أن الريف الذى يعوزه كل شىء من أسباب الترفيه والتثقيف الاختيارى المستساغ محروم من كل شىء .

ولست بما أقرر انتقص اهتمام الحكومة بفن التمثيل ، فان ما قدمتـه ، وان لم تدع أهدافه بحيث تماشى روح الزمن ، محمود ومشكور ، وهو الخطوة الأولى والأساس الأول الذى لابد منه ، وانما نحدد ما هو كائن لنرسم ما يجب ان يكون .

ان الذى نقترحه أن يكون لسكان الريف ورجال الحقول وعمال المصانع — وهم الشعب الكبير — مسرح محلى يكون ، بما يقدمه من روايات ، مرآة لجمهوره ، مرآة تجسم ما ينعكس عليها من جميل وقبيح ، ولا يصح أن ينعكس عليها غير خلجات قلب هذا الجمهور ومشاغل ذهنه وأحلامه وأمانيه ، فتكون روايات هذا المسرح ، من حيث تأليفها واخراجها ، لا تعلو على مدارك هذا الجمهور ، ولا تسف الى تملق رغباته ومواطن الضعف فيه ، وتكون بأهدافها قبل أى اعتبار آخر ، الى ما يبصره بما يجب أن يعرفه ليحسن فهم رسالته فى الحياة بالنسبة لنفسه ولمواطنيه ، والى ما يساعده على حل معضلات حياته ، ويجنبه الى عمله ، الى ما يشعره بكيانه ويشق له أفقا من التطلع الى تحسين حاله ماديا ومعنويا . وهكذا يكون المسرح للسواد الأعظم من الشعب ، بل يكون للشعب ومن الشعب وفى خدمة الشعب

وقد أخذت أوروبا بعد الحرب العظمى الأولى بأسباب هذا الأمر ، ولا سيما في روسيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، على الرغم من أن لها عرقا أصيلا في فن التمثيل ، ولها فيه تقاليد وأدب ، ودور التمثيل منتشرة في كل ناحية من نواحي الحضر والريف ، فأنشأت ما أطلقوا عليه اسم (المسرح الشعبي) ووكلت أمر الاشراف عليه وادارته الى الوزارة المختصة بشؤون الاجتماع والتثقيف والدعاية ، فما لبث أن عمل هذا المسرح الجديد عمله الفعال النافذ في رفع المستوى الثقافي والتعليمي العام ، وفي محو (الأمية الذهنية) التي هي أشد خطرا من أمية القراءة والكتابة .

والأمية الذهنية عندنا أمرها معلوم وهي فاشية حتى بين المتعلمين ، فهي داء ، وأما أمية القراءة والكتابة ، فوباء اجتماعي كالحفاء ، والمسرح الشعبي من ادواء ذاك الداء وهذا الوباء ، والحكومة جادة بمشروع الخمس سنوات ، لأن تواجه المشروعات النافعة في مختلف الحياة الاجتماعية المصرية لتستدرك ما فات ، ولتماشي سنة التقدم والارتقاء العام ففي ظني أن لن يكون بعيدا ذلك اليوم الذي يكون لنا فيه (مسرح شعبي) يؤدي رسالة التثقيف والتقويم الخلقي العام بين طبقات الشعب ويكون مصدرا لأدب شعبي جديد .

أقلقتم السابح في لجه ورعتم في الجو ذات الجناح
هذا ! وأنتم عرضة للفنا فكيف لو خلدتم ياوقاح ؟

" المعري "